المتاهة

غابة الموت والضجيج

الكاتب والمعتقل الإسلامي السابق

زكرياء بوغرارة

للإعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1435 هـ 2014 م

الإهداء

إلى الشهيد الذي مضى في محنتنا الكبرى عبد الحق بنتاصر "" مول الصباط""،
ظللت وحدك من رسخ في مخيالي من تلك الليالي السوداء بذلك المكان الرهيب.

للعابرين من هناك... وأخص بالذكر من إخواتنا... الطاهرات العفيفات:
أم الشهيد آدم المجاطي.. مَن مرت مِن هناك من قبل، ومعها شبل الإسلام المجاهد
إلياس المجاطي حفظهما الله تعالى.

أهدي هذا الغيث وأوله قطرة.

زكرياء بوغرارة

أو ل شهادة حية، عن مرحلة عاصفة من تاريخ التيار السلفي الجهادي في المغرب الأقصى، داخل المعتقلات السرية.

مساكين أولئك الذين ظنوا أنَّ الموت أو الغياب السحيق سوف يُودِي بصاحب الجبّ، لم يَدُرْ في خلدهم يوماً أن الفضاءات المطلقة تبدأ من الجحور الضيقة ... هنالك تصنع الحياة، ويُعاد ترتيب مُكوّناتها ... هناك يتهجّأ الإنسان حروف ولادته من جديد.

أيمن العتوم ""من رواية يا صاحبي السجن""

المعتقل السري الشاهد والمشهود.

إطلالة أدبية واقعية، على أقبية الظلم والظلام؛ حيث يقبر الأحياء وينسون.

المتاهة

1

إنها متاهة كالقفر الممتد اللامتناهي، تعصف بين جنباته حبَات الرمال في كل اتجاه، فتثير نقعا من الغبار الكثيف والزوابع الهائجة ... ثم تبدو ملامح غابة الموت والضجيج، إنها جاثمة هناك في ذلك الأفق، تعانق الضباب والبرد القارس والتكلس...

تبدو تلك الغابة متميَزة كالقلعة القديمة المهجورة.. إنها تجثم في ربوة عالية، أو لعلَها هضبة شاسعة تطل على البحر؛ حيث الصخور الصماء المنحوتة...

تتلاطم فوقها الأمواج العملاقة، وهي تزمجر في غضب وهياج...

وفي الجهة الأخرى من تلابيب المكان؛ يمتد الواد الطويل الصامت... وهو يختزن في أحشائه ألم السنين السحيقة، مع عظام الموتى والغابرين من العابرين إلى الموت، والمفقودين والتائهين في مجرَات الوطن والمتاهات الأخرى.

إنه النهر الأبكم، وهو يبتلع أسراره ومراراته وغدره الصامت..

هناك صمت وسكون ورطوبة وتكلس، يبدو في الجدارات السوداء الحالكة، ولون القتامة شعار المكان بل شعاره الوحيد...يكفي أن تردد اسم المعتقل في غمغمات هامسة؛ لتلمح في الوجوه ذلك الامتعاض الدفين، والحنق والقرف المزعج.

المعتقل متاهة ...إنه كعجوز من الغابرين، تمتد سنين عمرها لثمانية عقود مضت وانصرمت من حبَات مسبحة الزمن والتاريخ....

اختزلت جداراته الصماء بين جوانحها مرارت زمن الجمر والدم والهدم والرجم والقيح والصديد... ولا يزال رغم الشيخوخة والهرم قادرا على

الابتلاع، وقد اختزلت بين جوانحه آلامًا وصرخات وتأوَهات ملايين العابرين من دهاليزه وسراديبه السرية المنسية....

إنه تمساح لا يتعايش إلا مع التماسيح من فصيلته داخل خليج واحد، أما الضحية الغريب؛ فمصيره الموت البطيء المحتوم.. حتمية الصراع والابتلاع...

يجثم المعتقل أو المتاهة داخل فضاء الصمت ...أدواته القهر وكلَ ما تتطلَبه السلخانة البشرية... من صناعة الألم والضجيج....

ها قد مرَت السنوات، ولا يزال قادرا على البطش والوأد الساكن الخفي والقتل اللذيذ ...ذلك القتل الصامت البارد كالثلج، إنها عتمة، هي فوضى لا تعرف لونا غير الفوضى، ولا تعرف للألوان لونا غير السواد، ولا طعم لها فهي مرَة كالحنظل.

كريهة كرائحة الموت والتعفنات وجيف المقابر.

يزحف ـ المعتقل ـ في صمت بوحشيَته ووحوشه وكواسره الجارحة، ثم يفترس فتتطاير الأشلاء، وتراق الدماء، وتنتشر الجماجم..

هناك في عمق المكان المقيت الذي ابتلعنا لسنوات سحيقة، هي مزيج من سنوات الضياع والغربة، وفقدان الإحساس بالمكان والزمان والانتماء للوطن....

هناك كنَـا عندما ابتلعتنا الأرض الخرساء.

2

ذلك اليوم؛ قررت مهادنة الوقت، إنني أشعر بإنقباض يعْتريني.. وقلبي يشتد خفقانه... كنت أمشي في الطريق وألتفت ـ فجأة ـ لمحتهم كانوا يتعقبونني، تلك الوجوه أعرفها ..ألفتها وألفتني .. وجوه السحالي والحيَات والعقارب!

كلمح البصر يظهرون وفي لمح البصر يختفون .

في المساء اعترضوا طريقي... بعد أن أمعنوا في استدراجي!

سقطت في الفخ... حاصروني خارج المدينة ... هناك حيث لا حركة ولا صريخ غير الريح العابثة وسياط الشمس الحارقة ..قمَطُوني كطفل رضيع، ثم وضعوني في كيس كبير، وزجَوا بي في الدولاب الخلفي للسيارة " الشبح."..ثم انطلقوا وهم يتهامسون في سكون.... ونشوة غامرة:

. طريق الغرب.

وساد الصمت السيد الحصور المهيب.

حينها حركت جذور ذاكرتي... كم من مرَة أختطف من قارعة الطريق

مرات عديدة خضت هاته التجربة الفظيعة....

لا يحس بمرارتها وقوَة ألمها إلاَ من ذاق مراراتها القاتلة....

في جوف الليل؛ كنت داخل السرداب الأسود، فقدت الإحساس بالزمن،

قلت لهم بصوت مخنوق:

. هل أذن المؤذن للصلاة؟...

قال الحاج بصوت أجشَ

." هنا صلَّ في أي وقت"...

الله يفك " لْوْحايلْ"

ثمّ انصرف.....

لكلماته صدى في أذني .. للحظات تردّدت على مسامعي كلمة " لْوْحايلْ"

. لقد أصبح لديّ " وْحايلْ " ومصائب في سجل الوطن!

وهنا دار الحقْ.... من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّا يره!

كنت أسمع هذا الشعار هناك، كان يتردد على رأس كلّ ساعة عندما يصيح الجلاّد "كابيلا" في المعتقلين بصوته المزعج، ولا يفتر عن الصياح والزعيق وصناعة الألم....." هنا دار الحقْ".

دار الحق هي تمارة الجحيم الذي غمرنا بالصديد والقيح....

عندما أغلقوا الزنزانة ومضوا .. أحسست بالقيود التي كبّلوني بها وقد كادت تمزّق معصمي.... وأنا مصفّد إلى الخلف، والعصابة اللعينة تحجب عني البصر والمكان يوحي بالقتامة... يا له من عناق حارّ بين الماضي والحاضر! ذلك الماضي الذي كنت أعيش فيه حرّا... وهذا المصير المؤلم، وأنا مقيّد معصوب العينين، عاجز حتى عن قضاء حاجتي....

أما المستقبل.. فإنّه ظلام ليل طويل.

لا ريب أنّنا في زمن القوة المجهولة، والأيدي القذرة الخفية، التي تعبث بكل شيء وفي كل مكان... إنها خارج السيطرة وفوق القانون، والإنسان لا تعرف للرحمة معنى ولا تكترث لها...

في المتاهة جواسيس الهواء وأشباح الليل والنهار...إنهم يبدعون في نشر الرعب ...ورسم الأسى على الوجوه... وقهر كل أمل يتسرب إلى النفوس الحائرة.

3

مكثت داخل بطن الحوت ردحا من الزمن، فقدت القدرة على الإحساس بالزمان والمكان، ما أقساه من شعور!... أصبحت رجلا من الماضي لا أمتلك سوى الذكريات، حتى الوجوه التي أعرفها تبددت وتلاشت داخلي، تحوّلت إلى مجرّد أطياف عابرة ....

هناك داخل العتمة قرضنا بالمقاريض... أمعنوا في النحت فوق أجسادنا كانت الإهانة طبقا يوميّا نتجرّع" حسوته " في مرارة قاتلة....

هناك.. آلة جهنمية تطحن كل شيء....

الأصوات والضجيج والألم والعذاب.... هناك إراقة الدم طقس يومي اعتيادي، وشواء اللحم البشري في جلسات على الجمر، وصعق بالكهرباء، وتجريد من الملابس، و"شبْح" بالأرض؛ حتى يتحوّل الجسد إلى قطعة من المكان الصخري!

هناك ألبسونا أقنعة ... بينما أزالوا أقنعة وجوههم... تحولوا إلى وحوش.... وحوش تفترس وتلتهم وتهشم، وتتلذذ بالدم والقيح والصديد....

بعد مسافة من الزمن؛ جاؤوا مع الفجر، قمّطوني من جديد، ومضوا بي في رحلة مجهولة ... في مشارف المدينة؛ قذفوا بي في قارعة الطريق... كنوع رديء من القمامة... قيمتنا لا تعدو لديهم قيمة القمامة المأفونة!

❁ ❁ ❁

هناك سمعت صراخ الألم من "عبد الحق "؛ كان يتحمّل ما لا يطاق، ربما كانت عذاباتنا جميعا نقطة في بحر العذاب الذي نتلظّى فيه ... إنه صراخ الموت .....الموت البطيء..

في جوف الليل؛ كنت أسمع صراخه وألمه وتأوّهاته ... عندما يصعقونه بالكهرباء، وعندما يباشرون تعذيبه بالاختناق الوهمي... والصابون والشيفون..

كانوا يسدّون فتحة الأنف، ثم يضعون الشيفون مبلّلا بالصابون .. في فمه .. ويعلّقونه في الهواء.. فيختنق! وكلما أرغى وأزبد... زاد الصابون من الزبد والرذاذ في الفم... فيتضاعف الاختناق المؤلم.. وفي لحظة الذروة ... ينتزعون الشيفون ويغرقونه في الماء...

وهكذا تمتد رحلة الشقاء لساعات طويلة.....

كان يخيّل لي أنهم ينفخونه ... إحساس راودني بذلك؛ ينفخونه حتى يكاد بطنه ينفجر، ثم يمهل للحظات حتى يتمكن من التقاط أنفاسه ... ولا يرفع عنه العذاب إلاّ ليتمّ نقله إلى جحيم جديد ... أو تنتهي رحلة الجحيم بالاعتراف.

كان "عبد الحق" رجلا من طراز فريد؛ ارتفع فوق الجراح والآلام، كان يبتسم، ابتسامته كنت أحسّ بها وإن لم أرها... فقط كنت أسمعه وهو يرفض الاعتراف ويصرّ على الصمت ...يلوذ لكهف السكينة العميق.

صمته كان سلاحه.... به يفتك بهم، فيستشيطون غضبا، ويموتون كمدا، ويتميّزون غيظا... ويواصلون العذاب والألم.

بعد أيّام من الجحيم ... لفظ "عبد الحق " أنفاسه الأخيرة داخل المتاهة...

يومها اقتحموا زنزانتي، أخرجوني منها، لم أكن بمفردي ... نقلوا العشرات من المعتقلين في جوف الليل ... إلى عنابر تحت الأرض.. أفْزعهم موته....

أحسست بهم وهم يتهامسون، وأنا أحاول أن أتلصّص عليهم:

. لقد مـــــــات!

ثم يغمغمون في بلاهة وتيه ... يومها انداحت تلك الموجة الطارئة، ورفع عنا العذاب.. خشية أن يلتحق بركب الشهداء ... فرسان آخرون!

ظللت معصوب العينين بين اثنين يقبضان ذراعي، حتى أودعاني في الزنزانة الجديدة .... كانت رائحتها مقرفة ..إنفكّت القبضتان ... أقدم نحوي الحاج الكبير.

رفع العصابة عن عيني، وقال لي بكلمات ميتة:

. هل أنت جائع؟؟؟؟

كنت جائعا للنوم.... جوع النوم أقسى من جوع المعدة الفارغة... لهذا كان جوابي الصمت السيد الحصور والآمر والمأمور.

في العتمة يرتفع جدار الصمت والقهر.

4

أزعجني الباب الحديدي وهو يغلق؛ كان صرير المفتاح يحدث صدى في المكان، يخترق جمجمتي، وينغص علي لحظة السكون، ويرتد صداه في القبو.

أما الظلام فينتشر طوال اليوم؛ إنها العتمة الباهرة المقلقة والمحيّرة...

كنت هناك؛ عندما احتدم الألم، وصراع الأصوات، ورعب العذاب، وجحيم الاستنطاق ...كانت الفلقة إحدى أدوات العذاب، تأكل العصا الغليظة الأقدام حتى تتخدر، ثم يصبّون فوقها الماء البارد.... وتستأنف الأيدي القذرة عملها المقدّس؛ الفلقة واجب يومي، ثم تأتي بقية أنواع القهر.

خلف جدارات الصمت؛ يفقد الزمان معناه ويمتد الصمت ...كانت لعبة الزمن إحدى أدوات كسر الإرادات ... يأتي الجلاد ويصيح بصوت فج...

. هنا ... لا خروج إلاّ بالموت أو الاعتراف!

في يوم ... أو في شهر ... أو في مائة عام!

الدفن هنا.....

يمتد الصمت، وبينما تتقدم جحافله لتخترق الوجدان، وتصمّ الكيان، وتنهش الذاكرة، فتردّد الألسنة بالهمسات المجنونة:

. "حصلت هذي ....يا سيدي..... يا ربي..."..

عندما كان ينهكني الإرهاق؛ أشعر بثقل الزمن على كاهلي، كما تثقلني القيود..كنت أقرفص، ثم أمد رجلي في الإسفلت، وأضع خدي على الأرض؛ لعلّي أعرف موقعي منها في المكان ودائرة الزمان.

ما أقسى أن تكون في مكان يفترض أن تموت فيه ولا تعرفه.... ولن تعرفه....أبدا!!!!

إنها الحدائق السرية للجنرال.

عندما جاء الحجاج في الفجر؛ حملوني إلى المجهول وهم صامتون.

خرجت من البحر من" متاهة البحر" الذي غرقت فيه إلى الأذقان..ثمّ زجوا بي في النهر الصامت الجريء...في مشارف المدينة ألقوا بي، فتلقفني جلاوزة آخرون..إنه لون آخر من العذاب....

بسمة الوطن الساخرة في زمن انقلاب الموازين....

التهمتني الطاحونة ... قال كبيرهم وهو يلهث:

. أين كنت في رحلة الهروب؟

. في معتقل تمارة!

قلتها ببراءة جارحة.

يعم الصمت المهيب، وينتفض الجلاد وقد التف حولي عدد من أفراد البوليس السياسي ... كلهم يحدقون فيّ، ويسألون ويلحون في السؤال؛ عن لقبي وكنيتي

. أبو مـــين؟

يسود الصمت ..إنني لست أبا لأحد، أنا أبو نفسي...

ولكن لا حياة لمن تنادي....

في المعتقل سمعتهم يسألون أحد الضحايا وآلة العذاب تأكل جسده:

. أبو مـــين...؟؟؟ ما هي كنيتك... اسمك الحركي!

يعم الصمت . دائما. ويزداد العذاب، ويتصاعد الصراخ القاتل، وأخيرا ينهار الضحية، ويصيح في هستيرية مجنونة مفزعة تمزّق النياط:

. أنا أبو الديلاصور!

. أنا أبو الديلاصور!

ارتسم الامتعاض على وجهي، وعلا سحنتي الخالية من أيّ تعبير....

قال كبيرهم وهو يمسك الجريدة بيده.... قرأت عناوينها العريضة وأنا ملتزم بالصمت... حدجني بنظرة شزراء ..ثم قال:

. أنت أبو

لم أحر جوابا .. أرغى وأزبد، وقد تطاير الرذاذ من فمه النتن، وهو يروغ روغان الثعلب.... غُصت في الأرض بسرعة مذهلة عندما تداعت على جسدي أيديهم وأرجلهم وهم يضربون بكل قوة... انفلتت من فمي أوّل" تكبيرة" هزّت أركان المكان فتفرقوا.... كانت دهشتهم غامرة!

أيّ سحر تمتلكه كلمة " الله أكبر"! ارتج لصداها مربع القهر!

تهالك جسدي... حملوني إلى دولاب سيارة كبيرة، ثم انطلقوا بي إلى المجهول من جديد... حينها أدركت أن المتاهة المتواصلة ستتقاذفني من مكان إلى مكان، ومن معتقل إلى معتقل، ومن جلاد إلى جلاد، ومن أيدٍ قذرة إلى أيدٍ أكثر قذارة ومقتا وترهّلا... المتاهة .. إنها غابة الموت والضجيج.

ارتسامات

طارق الاحمدي

كاتب تونسي

حقا أبهرتني بهذه الرائعة " المتاهة "، التي تغوص عميقا في أدب السجون، وتستخرج مكامنه، وتفضح المعتقلات.

هذه المعتقلات التي شبهتها مرة بالتمساح، ومرة ببطن الحوت، وأخرى بيوم الحشر.

هذه المعتقلات التي تبتلع كل من يرميه فيها زبانيتها؛ ليستقبله آخرون شداد غلاظ، لا تعرف الرحمة لقلوبهم طريقا.

والله العظيم قد أبدعت في نقل المعاناة.

. كان تصويرك أكثر من رائع يا رجل .. أمتعتني فعلا.

فكم تتقززت من البوليس السياسي، وأنت تلبسه حلة السحالي والحياة والعقارب، وكلها شيمتها الغدر.

كم استمعت إلى المعتقلين، وهم يسبحون بعد أن التقمهم الحوت، وصاروا في ظلمة بطنه.

كم أحسست بخوف الجلادين ورعبهم من صراخ عبد الحق وصموده .. من صمته .. من روحه التي تعالت عن سياطهم.

كم شعرت بظلمة معتقل " تمارة " والظلم الساكن فيه!

كم أجد نفسي عاجزا عن الكتابة .. لقد تحجرت الحروف وذهلت الكلمات ولم يبق غير إبداعك نابضا.

كم تمنيت لو أن عبد الرحمن منيف كان حيا يرزق؛ ليشهد ميلاد " غرب متوسط " " يوازي " شرق متوسطه!

أستاذ زكرياء بوغرارة

كم أتمنى أن تتحفنا بهذا النوع من أدب السجون؛ فهو حقا ممتع ومرعبة أحداثه .. وقليلة هي الأقلام التي تجيد العزف على أوتاره...

يرفــع عملك للواجهة ليكون شاهدا على هذه المتاهة، وإجلالا لقلمك الذي نثر التميّز.

التجارب الخاصة؛ دائما تكون لها نكهة خاصة، مغلّفة بالكثير من الصدق والتشويق، وتجربتك في المعتقل قد أثمرت " أسوار الظلام "، وأظن أنها تحمل بين طياتها الكثير من الإبداع.

خالد عبد اللطيف

كاتب مغربي

أدب السجون نادر وقليل في عالمنا العربي، ولعل حديثك عن معتقل تمارة بالمغرب يذكرني أيضا بمعتقلات أشد شرا ومرارة، عاشها معتقلون سياسيون بالمغرب، إبان سنوات الجمر والرصاص بالمغرب في بداية السبعينيات، ومن بين هذه السجون الملعونة بالمغرب والسيئة الذكر؛ أذكر(سجن تازممارت الشهير، الذي مات بداخله الآلاف من المعتقلين السياسين المغاربة، بالإضافة إلى سجن الكوربيس، وسجن أغبالة نكردوس، وسجن دار المقري، وسجنَي الزاكي، وسجن عكاشة، وبولمهارز،

وعين قادوس، وسجن الدار الحمراء التي كنت معتقلا فيها أيضا، وبعدخروجي منها كتبت ثلاثة أجزاء أسميتها"أسوار الظلام"، وقدقامت وزارة الثقافة المغربية بطبعها سنة ٢٠١١ .كما أن هناك سجونًا عربية قاسية؛ كالموجودة بمصر؛ مثل: (معتقل أبي زعبل –ومعتقل الحربي ... ومعتقلات كوانتامو بأمريكا، وسجون أخرى؛ الجلاد فيها هو الجلاد.

قصتك مميزةوصريحة، ولدي طلب بسيط؛ إذا كنت قد عشت هذه التجربة شخصيا، فطورها إلى عمل روائي وستلقى النجاح والإقبال.

شكرا على القصة الرائعة والمأسَوية في نفس الوقت، لك تحياتي.